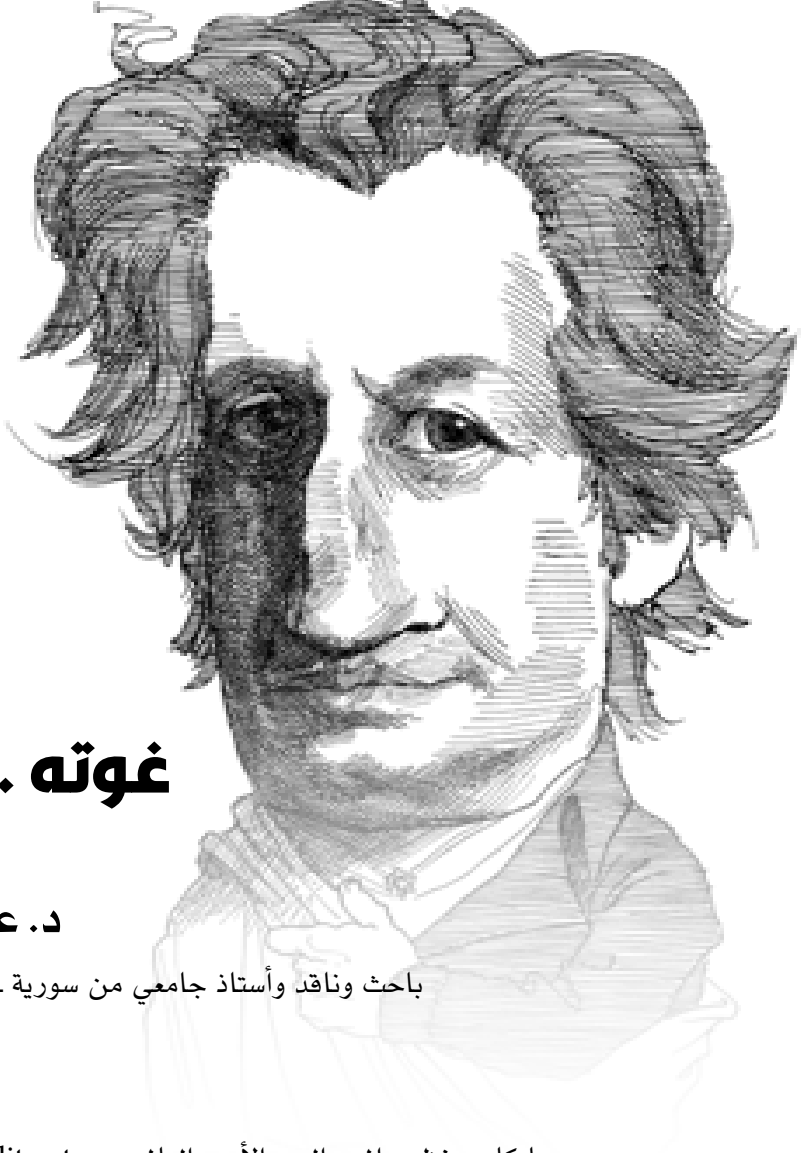

غوته .. والترجمة

د. عبد النبي اصطيف

باحث وناقد وأستاذ جامعي من سورية ـ عضو اتحاد الكتاب العرب

مهما كان منظور المرء إلى «الأدب العالمي» Weltliteratur، ومهما اختلف فهمه لهذا «المفهوم» عن فهم نظرائه، فإنه لا محالة سيواجه مسألة الترجمة، بوصفها الوسيلة الأكثر أهمية في استكشاف «آداب الآخر»، إذ تستحيل الإحاطة بهذه الآداب، حتى على متعدِّدي اللغة، دون الاستعانة بالترجمة.

ولذا كان من الطبيعي أن ينشغل غوتة بها، وهو المسؤول الأبرز عن نشر هذا المفهوم والترويج له في مختلف أنحاء أوربة، ولاحقاً في مختلف أنحاء العالم، خلال القرنين الماضيين، وبخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية التي اتخذت من «الأدب العالمي» أداة، بل نافذة يطل منها الأمريكيون على عوالم «الآخر»، وأدخلته دوائرُها الجامعية مقرراً مهماً من مقررات أقسام الآداب واللغات في أبرز جامعاتها.

والحقيقة أن انشغال غوتة بالترجمة متعدد الوجوه، فقد انشغل بها بوصفها:

•وسيلة للتعارف الأدبي بين متعلِّمي أوروبا، ولتوثيق الصلات الثقافية المتبادلة ما بين الأمم والشعوب، فهي، مثل الدراسة والتعريف، من أهم أشكال التوسّط بين آداب الأمم المختلفة. ذلك أن الأدب العالمي، كما يفهمه غوته، من أنجع الوسائل في التأسيس لتعارف حقيقي بين الأمم والشعوب، خاصة وأن الأدب القومي غالباً ما يفصح بصدق عن روح الأمة، أو الشعب، أو القوم، المنتجين له.

ففي رسالة إلى توماس كارلايل صاحب كتاب «الأبطال»، تعود إلى 1 كانون الثاني 1827، يسأل غوته عن ترجمة إنكليزية لمسرحيته تاسو من جانب Des Voeux:

«أود أن أعرف رأيك إلى أي مدى يمكن عدّ تاسو (مترجمة إلى الإنكليزية) إنكليزية، ستجعلني ممتناً لك على نحو كبير بإعلامي عن هذه النقطة؛ لأن هذه الصلة ما بين الأصل والترجمة وحدها التي تعبر بأقصى درجات الوضوح عن الصلة ما بين أمة وأمة، والتي على المرء أن يعرفها، فوق كل شيء، إذا ما كان يرغب في تشجيع أدب عالمي مشترك يتجاوز التخوم القومية».

وفي معرض الحديث عن الخدمة المزدوجة التي يقوم بها المترجم: تجاه أمة اللغة المصدر من جانب، وتجاه أمة اللغة الهدف من جانب آخر، يشير غوته إلى أن المترجم لا يخدم أمته فقط عندما يُيَسِّر لأبنائها آثاراً أدبية أو علمية أنتجها أبناء أمة أخرى ويوطِّنُها في ثقافة أمته لتزداد بها حيوية، وتغنى بمحتواها، ولكنه كذلك يخدم الأمة التي يُترجم آثارها عندما يلفت أنظار أبنائها إلى أهمية ما أنتجوه، وإلى وجوه في هذا الإنتاج غابت عنهم بسبب إلفتهم لها، وباتت جدَّ عادية لا تستحق الاهتمام الواجب، في حين تظفر بهذا الاهتمام في ثقافة الهدف التي ترجم لأبنائها هذا الإنتاج.

وملاحظة غوته هذه جدُّ مهمة، والمتتبع لتاريخ العلاقات الأدبية بين الأمم والشعوب يستطيع أن يتبيَّن صدقها فيما لا يحصى من الأمثلة. ولعل أبرز مثال عليها كتاب ألف ليلة وليلة، الذي لم ينل ما يستحقه من اهتمام في الثقافة العربية، ولم يلتفت باحثو العربية ونقاد أدبها إلى أهميته بوصفه رائعة عالمية وكتاباً كونياً إلا بعد ترجمته إلى الفرنسية على يد أنطوان غالان، وانتشاره انتشار النار في الهشيم في أوروبا أولاً، ومن ثم في مختلف بقاع العالم لاحقاً.

يكتب غوته لكارلايل في رسالة أخرى تعود إلى (15 حزيران 1828):

«نلاحظ هنا شيئاً ما جديداً، ربما نادراً ما لوحظ، ولم يعبَّر عنه من قبل: وهو أن المترجم لا يعمل من أجل أمته وحدها، وإنما كذلك للأمة التي يستمد من لغتها العمل. فقد يتفق، أكثر مما نظن، أن أمة ما تستمد حيوية وقوة من عمل، وتستوعبه بكامله في

حياتها الداخلية، حتى أنها لا تظفر بأية متعة منه، ولا تحصل على أي انتعاش آخر منه. وهذه هي حال الألمان بشكل خاص. إنهم ميالون إلى الحماس المسرف، وبالإعادات المتكررة لشيء يحبونه، يدمرون بعض خصائصه. ولذا فإنه من الخير لهم أن يروا واحداً من أعمالهم الأدبية يولد بالترجمة من جديد، من خلال الترجمة».

• ممارسة محببة إلى نفسه انشغل بها على مدى سبعة عقود، كما يشير إلى ذلك الناقد المتعدد الاهتمامات، والباحث المقارني البارز جورج شتاينر George Steiner في فصله المعنون «حاشية سفلية للأدب العالمي»(1)، الذي ضمه كتاب «أسطورة إيتامبل» Le Mythe D'Etiemble. فقد كان غوته يُترجم من ثماني عشرة لغة، وامتد نشاطه الترجمي ثلاثة وسبعين عاماً. ويؤكد شتاينر أنه إنما يذكّر بهذه الحقائق المعروفة، ليحدِّد الدور الذي أدّاه هذا النشاط من جانب غوته في تشكيل بياناته عن الأدب العالمي التي بلغت واحداً وعشرين بياناً أدلى بها في السنوات الأربع الأخيرة من عمره. خاصة وأن الرجل، أي غوته، كان يرى «أن الجاهل باللغات الأجنبية لا يعرف شيئاً عن لغته». وفي معرض تذكيره بتفاصيل هذه الحقائق يشير شتاينر إلى اللغات: الفرنسية، والإيطالية، والإنكليزية، والصربية ـ الكرواتية، ولغة هندية من البرازيل، وإلى اليونانية، واللاتينية، والفنلندية، والصقلية، والإيرلندية القديمة، والتشيكية القديمة، واليونانية الحديثة، والهولندية، والعربية الكلاسيكية، والغالية، والصينية الكلاسيكية، والعبرية، والفارسية؛ وإلى أن ترجمات غوته عن هذه اللغات كانت في عدد من الحالات عن طريق لغة وسيطة(2).

• عملاً نبيلاً شجع عليه ودعا إليه معاصريه من الأدباء والكُتّاب. ذلك أن الترجمة، في رأي غوته، من أهم الوسائل المؤدية إلى تعزيز قيم المعرفة، والفهم، والتسامح، والقبول، والحب لآداب الشعوب الأخرى؛ وهي قيم تخدم العلاقات التي تقوم عادة بين الشعوب والأمم والأقوام، وتؤسسها على مبدأ «التعارف»، والمعرفة هي من أنجع الوسائل المساعدة على تبديد العداوة، و»الناس أعداء ما جهلوا» كما يقول المثل العربي، والأدب في جوهرة معرفة صادقة تشي بحقيقة ذات منشئها. وهكذا نراه يكتب في مجلته «الفن والآثار» Art and Antiquity في معرض تعليقه على انتشار المجلات التي تعنى بآداب الأمم الأخرى مثل مجلة إدنبره Edinburgh Review (تأسست عام 1802)، ومجلة بلاك وودMagazine Blackwood(تأسست عام 1817):

««ستسهم هذه المجلات، إذ تصل جمهوراً أوسع، على النحو الأكثر فاعلية في الأدب العالمي الإنساني الذي نرجوه. ولكننا، نكرر، أنه لا يمكن أن تكون المسألة أن تفكر الأمم على نحو متشابه. إن الغرض ببساطة هو أن يتنامى وعي إحداها بالأخرى، وأن يتفهم

بعضها البعض الآخر، وحتى عندما تكون إحداها غير قادرة على أن تحب الأخرى، فإنها على الأقل قد تتسامح معها».

• و دوراً متميزاً خصّ اللغة الألمانية زاعماً أن لها قدرة عالية على التوسط بين أمم أوروبا وشعوبها. فعلى سبيل المثال يكتب غوته متحدثاً عن اللغة الألمانية ودورها في هذا التوسط:

«من يفهم اللغة الألمانية ويدرسها يجد نفسه في السوق حيث توزِّع جميع الأمم بضائعها، إنه يؤدي دور المفسِّر بينما يُغني ذاتَه في الوقت نفسه. وهكذا فإن من الواضح أن كل مترجم يقوم بدور الوسيط في هذه التجارة العامة للثقافة، ويجعل الترويج لهذا التبادل العام شغله الشاغل. وبسبب ما يمكن أن يقوله المرء عن عدم كفاية الترجمة فإنها تبقى أحد أهم النشاطات وأنبلها في تجارة العالم»(3).

• وتصوّراً خاصاً لعمل المترجم قدّمه في خاتمة الديوان الشرقي للمؤلف الغربي، حمل عنوان «ترجمات»، كتب فيه:

«لما كان الألمان يتقدمون في معرفة الشرق بفضل الترجمات من كل نوع فإننا مسوقون إلى إيراد بعض الملاحظات التي وإن لم تكن جديدة فإن في تكرارها فائدة دائماً»(4).

وأول هذه الملاحظات أنه توجد ثلاثة أنواع من الترجمات.

• «الأول يعرّفنا بالأجنبي بحسب فهمنا نحن، وأفضل طريقة لهذا النوع هو الترجمة نثراً. ذلك أنه لما كان النثر يلغي كل خصائص الشعر القومي ويسوّي في نفْسِهِ المستوى المشترك الحماسةَ الشعرية، فإنه في البداية يُسدي أَجَلَّ الخدمات من حيث أنه يفاجئنا في وسط حياتنا القومية وحياتنا الخاصة مبينا لنا المزايا البارزة للأجنبي ويوفّر لنا تنشئة حقيقية بأن يرفعنا فوق أنفسنا، دون أن ندري كيف تم هذا»(5).

• «وبعد ذلك يأتي عصر، فيه يحاول المرء أن يتكيف مع مظاهر الحياة الأجنبية، لكنه في الحق لا يسعى إلا إلى اكتساب الروح الأجنبية، لكن بنقلها إلى روحنا نحن، وهذه المرحلة مرحلة المعارضة Perodistische مستعملا هذا اللفظ بأصفى معانيه. وفي الغالب يكون ثَم أشخاص موهوبون لهذا اللون من العمل. والفرنسيون يستخدمون هذه الطريقة في ترجمة كل المؤلفات الشعرية... والفرنسي، كما أنه يكيّف الكلمات الأجنبية مع لهجته، يفعل الشيء نفسه بالنسبة إلى العواطف والأفكار وحتى الموضوع، ويطالب بأي ثمن لكل ثمرة أجنبية بمقابلٍ نما في تربته هو»(6).

• «لكن كما لا يمكن الاستمرار في الكامل ولا في الناقص، وأنه لا بد أن يتلو التحوّل تحوّل آخر، فقد وصلنا إلى مرحلة ثالثة يمكن أن تسمى المرحلة العليا والأخيرة، تلك

التي يمكن فيها جعل الترجمة مثل الأصل بحيث لا تعبّر عنه فقط على نحو مقارب، بل وأيضاً أن تحلّ محلّه».

«وهذه الطريقة تلقى أولاً أشد مقاومة؛ لأن المترجم الذي يتابع الأصل بدقة يتخلى عن أصالة أمته، وينشأ عن ذلك حد ثالث ينبغي على ذوق الجمهور أن يتكيف وإيّاه». «وفوس Voss، وفضله لا يتسع له وصفٌ واصف، لم يستطع أول الأمر إرضاء الجمهور إلا بعد أن ألفت الأذن شيئاً فشيئاً هذا الأسلوب الجديد. لكن من يشمل اليوم بنظريته ماتم، وإلى أي حد من المرونة وصل الألمان، وأي فوائد بلاغية وإيقاعية ووزنية تتبدى للشاب الموهوب وكيف أن أريوستو وتسّو وشكسبير وكالدرون يقدَّمون إلينا اليوم بشكلين أو ثلاثة أشكال مختلفة، كأجانب وسموا بسمعة ألمانية، ـ هذا الشخص له الحق في أن يأمل أن التاريخ الأدبي يعلن بغير التواء عن اسم أول من شق هذا الطريق بين مختلف العقبات»(7).

«لكن لماذا سمينا المرحلة الثالثة بالأخيرة، هذا ما سنشير إليه في كلمات قليلة. إن الترجمة التي تهدف إلى أن تكون هي كالأصل، تنحو إلى الاقتراب من الترجمة بين السطور، وتسهّل جداً فهم الأصل، وبهذا نجد أنفسنا وقد عدنا رغماً عنا إلى النص الأصلي، وهكذا تتم في النهاية الدورة التي يتم وفقاً لها الانتقال من الأجنبي إلى الوطن، من المعروف إلى المجهول»(8).

وقد كانت حصيلة هذا النشاط الترجمي لغوته حصيلة غنية بأي مقياس من المقاييس، انصرف ثلثها للشعر وثلثاها المتبقيان للنشر، ومع تنامي نشاطه هذا مع استدارة القرن التاسع عشر، لم تمض سنة واحدة من عمره لم ينشغل فيها، بل لم ينخرط فيها بكل جدِّية، في عملية الترجمة على نحو أو آخر(9).

ومما يلفت نظر المرء في تصوّر غوته لعمل المترجم تأكيده أن الترجمة ينبغي أن تقوم على نوع من الشراكة بين المؤلف والمترجم. وهكذا فإنه يذكر في ثنايا رسالته إلى سولبيز بواسيريه Sulpiz Boisserée، ترجمة دراساته النباتية الأخيرة إلى الفرنسية، وأن صديقه سوريت Soret، الذي قام بها لم يستطع فهم بعض المقاطع ذات الأهمية الكبرى فيها بألمانية غوته، مما اضطر هذا الأخير إلى القيام بترجمتها له إلى لغته الفرنسية الخاصة به، ومن ثَمَّ أعاد سوريت كتابتها بفرنسيته الخاصة به، ويضيف:

«أنا مقتنع تماماً أنها في تلك اللغة ستكون على وجه العموم مفهومة أكثر من الألمانية، ويبدو أن سيدة فرنسية معينة قد فكرت في استعمال هذا النظام لتوّها، فقد أمرت بترجمة الألمانية لها ببساطة وحرْفية، وبعدها مضت إلى تمكينها بالحسن الخاص بلغتها وجنسيها».

ومعنى هذا أن غوته، من خلال الإشارة إلى هذا المظهر من مظاهر التعاون بينه، بوصفه مؤلِّفاً، وبين مترجمي كتبه، يدعو ضمناً إلى نوع من الشراكة بين المؤلف والمترجم، لأن إنجاز الترجمة العالية يقتضي العمل أحياناً على مرحلتين:

• أولاهما الترجمة الحرفية البسيطة للنص، وهذه يمكن أن تتم من جانب مختص باللغة ـ المصدر، أو المؤلف ذاته،

• وثانيتهما إعادة كتابة هذه الترجمة باللغة ـ الهدف على نحو ييسر قراءتها واستيعابها وتمثلها من جانب قراء تلك اللغة.

والحقيقة أن غوته، فيما يبدو، لم يكتف بهذا الضرب من التعاون بينه وبين مترجميه، بل مارسه في كتابته الإبداعية المستلهَمة من ترجمات غيره. فعلى سبيل المثال اعتمد الرجل في تأليفه لقصائد الديوان الشرقي للمؤلف الغربي على ترجمة جوزيف فون هامر بورغشتال لديوان حافظ الشيرازي. وعلى الرغم من تحفّظه على هذه الترجمة لأنها، فيما بدت له، «ضئيلة الحظ من الرشاقة، نظراً إلى محاولة المترجم أن يقلّد الصنعة اللفظية الموجودة بالأصل»(10)، فإنه يقرّ بدينه العظيم له عندما يكتب في «تعليقات وأبحاث تعين على فهم «الديوان الشرقي»(11) عن «فون همّر»: «تشهد كل أجزاء كتابي هذا كم أدين لهذا الرجل الممتاز»(12). ويبدو أن غوته قد اتخذ من ترجمة فون هامر التي تعوزها الرشاقة أساساً لإعادة كتابة قصائد حافظ الشيرازي بألمانيته المتألقة، وهو ما تؤكده رسالة معصومة كالته سفاري Masoomeh Kalatehseifary التي عنيت بدراسة «ترجمة جوزيف فون هامر بورغشتال لديوان حافظ الشيرازي والديوان الشرقي للمؤلف الغربي غوته»، عندما تكتب مؤلِّفتها عن أستاذية غوته في إعادة كتابته لترجمات بورغشتال:

«يركز الفصل الثالث <من الرسالة> على قصائد الديوان الشرقي ـ الغربي لغوته على ضوء ترجمة هامر والنص الأصلي لحافظ، ويظهر كيف أن أستاذية غوته في نظم القصائد المستلهَمة من حافظ تمنح الجمهور القارئ فهماً لشعر تلك الشخصية الفارسية الكلاسية دون الحاجة إلى قراءة أو فهم النص الأصلي، ويحاجج أن قصائد ديوانه الديوان الشرقي ـ الغربي تحيي الأنساق الأدبية الحافظية في عقول القراء الذين يعرفون الشاعر الفارسي، وتجعلها مفهومة للغربي غير العارف. ويوضح التحليل كذلك كيف أن غوته يتجاوز الضعف في نسخة هامر بورغشتال بإعادته إنشاء رسالة حافظ»(13).

ولما كان غوته على معرفة متفاوتة بعدد لا بأس به من اللغات: يقرأ بمعظمها،

ويترجم عن بعضها، ويكتب ببعضها، ويتحدث ببعضها بطلاقة، فقد كان عليه أن يواجه في ترجماته مشكلة الترجمة الصوتية لأسماء الأعلام، والأماكن، وهو ما عبّر عنه بـ «طريقة رسم الأسماء الشرقية»، أو بعبارة أخرى كتابتها بالحروف اللاتينية. وهكذا نراه يكتب في خاتمه «تعليقات وأبحاث تعين على فهم «الديوان الشرقي» في معرض حديثه عن «الأغلاط المطبعية»:

«ولنتحدث أولاً عن طريقة رسم الأسماء الشرقية، وهذا أمر لا يمكن تقريباً الوصول فيه إلى اتفاق تام. إذ بسبب الفارق الكبير بين لغات الشرق ولغات الغرب، من العسير أن نجد لأبجدية لغات الشرق ما يقابلها تماماً في أبجدياتنا. وفضلاً عن ذلك فإنه لما كانت اللغات الأوربية، بسبب اختلاف أصولها ولهجاتها الخاصة، تعزو أبجديتها الخاصة قيمة ومدلولاً مختلفين، فإن الاتفاق أشد عسراً.»(14).

وإذ يقرّ بدينه في ميدان الترجمة الصوتية Transliteration للدليل الفرنسي وهو معجم هيربوليه Herbelit الذي قاده فيه، فإنه يذكِّر بأن هذا العالم الفرنسي قد قام بتعديل الكلمات والأسماء الشرقية وتكييفها وفقاً للنطق والحس السمعي عند مواطنه الفرنسي، وأن هذا التعديل قد انتقل بالتدريج إلى الألمان. وتكرر الأمر نفسه لدى الإنكليز الذين أعطوا لأنفسهم مطلق الحرية في نطق هذه الأسماء ورسمها على طريقتهم، مما يوقع القارئ لكتاباتهم عن الشرق في الشك والحيرة.

أما الألمان الذين يفخرون بأن لغتهم تُكتَب كما تُلفَظ، وأنهم يكتبون ما ينطقون، ومن ثَمّ فإنهم يطاوعون عن طيب خاطر «الأصوات والكم والنبرات الأجنبية»، فقد أخذوا بالعمل في هذا الميدان – ميدان الترجمة الصوتية ـ وكان عملهم يتسم ببالغ الجدية، لأنهم سعوا دائماً إلى الاقتراب المتزايد من الأصوات الأجنبية، ولذا فإننا نجد فوارق كبيرة بين الأعمال القديمة والحديثة، حتى أن المرء لا يجد نفسه مضطراً للخضوع لواحد من اجتهاداتهم.

ويبدو أن غوته، بتواضعه من جانب وتوخيه للدقة من جانب آخر، وحرصه على تمثيل «الآخر» أصدق تمثيل، حتى في نطق ما يتصل به من أسماء، فإنه كان يلجأ إلى سؤال المستشرقين عن كيفية نطق الأسماء الشرقية، ويشير في هذا السياق إلى دينه للمستشرق العالم الملاطف ي، ج، ل، كوزيغارتن الذي حمل عنه عبء الترجمة الصوتية.

يكتب غوته عن هذا الجانب من عمله الترجمي المتصل بحرصه على دقة رسم الأسماء الشرقية بغرض توخي نطقها على نحو سليم يراعي أصولها:

«ونحن ـ يقصد غوته نفسه ـ إنما قادنا في هذه المناطق خصوصاً دليل فرنسي.

ذلك أن قاموس هيربوليه Herbelit هو الذي حقق أمانينا. لكن هذا العالِم الفرنسي كان عليه أن يكيَّف ويُعدِّل الكلمات والأسماء الشرقية وفقاً للنطق والحسّ السمعي عند مواطنه، وهذا قد انتقل شيئاً فشيئاً إلى الألمان. فمثلاً نحن نقول دائماً Hagire بدلاً من Hedshra اتباعاً لحسن النطق وللعادة القديمة.

كذلك فعل الإنجليز الكثير من جانبهم في هذا المجال! فعلى الرغم من أنهم ليسوا على اتفاق فيما يتعلق بنطق لغتهم هم، فقد استخدموا لأنفسهم الحق في نطق ورسم هذه الأسماء على طريقتهم، وهذا يوقعنا من جديد في الشك والحيرة.

والألمان وهم أكثر الناس حظاً من السهولة في الكتابة كما ينطقون ويطاوعون عن طيب خاطر الأصوات والكمّ والنبرات الأجنبية، قد أخذوا في العمل بجدّ في هذا الميدان. ولكنهم لأنهم سعوا دائماً إلى الاقتراب المتزياد من الأصوات الأجنبية، فإننا نجد فوارق كبيرة بين الأعمال القديمة والحديثة، بحيث لا يجد المرء مبرراً للخضوع لسلطة جادة»(15).

الهوامش:

(1) انظر: George Steiner, "A Footnote to Weltliteratur, in: Le Mythe D'Etiemble (Didier, Paris, 1979), pp. 261 ـ 69. والمتضمن في كتاب: D›haen, Theo, Dominguez, Cesar, and Thomsen, Mads Rosendahl, (editors), World Literature: A Reader, (Routledge, New York and London, 2012), pp. 114 ـ 121.

(2) انظر: George Steiner, "A Footnote to Weltliteratur, in: Le Mythe D'Etiemble (Didier, Paris, 1979), p. 115.

(3) نقلاً عن شتاينر، المرجع السابق، ص115.

(4) انظر: جيته، الديوان الشرقي للمؤلف الغربي، ترجمة عبد الرحمن بدوي.)دار النهضة المصرية، القاهرة، 1967)، ص517.

(5) انظر: المرجع السابق، ص517.

(6) انظر: المرجع السابق، ص ص517 ـ518.

(7) انظر: المرجع السابق، ص ص518 ـ519.

(8) انظر: المرجع السابق، ص520.

(9) انظر بغرض معرفة المزيد من التفاصيل عن هذه الترجمات: شتاينر، المرجع السابق، ص115.

(10) انظر: جيته، الديوان الشرقي للمؤلف الغربي، المرجع السابق، ص (40).

(11) انظر: المرجع السابق، ص ص369 ـ531.

(12) انظر: المرجع السابق، ص514.

(13) انظر: Masoomeh Kalatehseifary , "Joseph v. Hammer Purgstall's German Translation of östlicher Divan" , A thesis presented to the University of Waterloo ـ Hafez's and Goethe's West in fulfillment of thesis requirement for the degree of Master of Arts in German, Waterloo University, Ontario, Canada, 2009, p. iv.

(14) انظر: جيته، «تعليقات وأبحاث تعبن على فهم الديوان الشرقي»، المرجع السابق، ص (528).

(15) انظر: جيته، «تعليقات وأبحاث تعبن على فهم الديوان الشرقي»، المرجع السابق، ص ص (528 ـ529).